

قصة الفلاح الفصيح

لم أكن أعرف جيدا تفاصيل قصة (الفلاح الفصيح)، إلا عندما قرأتها في موسوعة الراحل الكبير سليم حسن عن مصر القديمة، والتي تم نشرها ضمن مشروع مكتبة الأسرة في ثمانية عشر جزءا جيد الطباعة، ثمن الجزء الواحد خمسة جنيهات. وفيها يمكن للقارئ أن يتجول بين مراحل التاريخ المصري القديم من زاحية والحضارة المصرية القديمة من زاحية أخرى. ومنها أيضا يحس المواطن المصري بأنه ينتمى إلى شعب عريق في الحضارة التي شيدها أجدادنا العظام، ليس فقط في ميادين العمارة والأهرامات، وإنما أيضا في النظام الإداري والقضائي، بالإضافة إلى مجالات الآداب والفنون والأخلاق.

مختصر القصة أن فلاحا مصرياً من وادى النطرون سافر إلى العاصمة لبيع محصوله السنوي من الملح، محملاً إياه على بعض حميره. وفي الطريق اعترضه أحد موظفي الإدارة، وطمع في تجارته، فاعتصبها منه بحيلة دنيئة، حيث ادعى أن بعض حمير الفلاح قد أكلت بعض سنابل القمح من حقله! وزاد على ذلك بضربه وإهانته. وعلى الفور اتجه الفلاح المسكين إلى حاكم الإقليم (المحافظ) ليرفع إليه مظلمته، ويشكو ذلك الموظف المغتصب. وهناك صاغ شكواه في لغة أدبية رفيعة المستوى، مما جعل مستشاري المحافظ يوصون بإرسالها إلى الملك نفسه، الذي رأى بدوره عدم الإسراع في حسم القضية لكي يكرر الفلاح أمثال تلك الشكوى من فرط الإعجاب بأسلوبه! وبالفعل ظل الفلاح يواصل كتابة شكواه حتى بلغت تسعا، كل منها يفيض حزنا وبداغة، وتمتزوج فيها دموع الإنسان المظلوم بعبارات الحكمة العالية. وقد جاءت النهاية سعيدة، حيث أدين الموظف المغتصب، وتم شكر المحافظ ومستشاريه، وأعيد الحق إلى الرجل المظلوم، الذي استحق بكل جدارة لقب الفلاح الفصيح.

ماذا رأى العالم في تلك القصة؟ لقد ترجمت إلى معظم لغاته، ورأى فيها المتخصصون واحدة من أجمل الوثائق الأدبية التي أنتجتها الحضارات القديمة، كما بحثوا في ثناياها عن مصادر ثقافة ذلك الفلاح الذي نشأ وعاش في صحراء والنطرون، أو كما يطلق عليه: وادى الملح! وركز بعض الباحثين في الحضارة المصرية القديمة على ذلك النظام القضائي العادل الذي ضمن لفلاح بسيط أن تصل شكواه بسرعة وسهولة إلى الفرعون، ملك البلاد، ثم بالقرار الحكيم والحازم الذي عاقب المغتصب وأعاد الحق إلى صاحبه. ويبقى من أروع الجوانب الإنسانية في القصة أنهم عندما رأوا تأجيل الحسم في القضية لكي يواصل الفلاح كتابة شكواه البليغة، قرروا في نفس الوقت أن يكلفوا من يقوم — سرا — على إعاقة الفلاح أثناء إقامته في العاصمة دون أن يشعره بذلك! ونفس الشيء فعلوه مع زوجته وأولاده بوادى النطرون حتى لا يتزايد قلقهم عليه أثناء غيابهم عنهم!

وأخيرا، ما أجمل التجول في تاريخنا وحضارتنا! والأجمل أن نتوقف عند بعض ما تحتويان عليه من جواهر لا يخبو بريقتها! ولنترحم جميعا على عالمنا المصري الأصيل سليم حسن.